الشيخ حسن العطار

أستاذ الأساتذة فى النهضة المصرية

هذا الشيخ حسن العطار من الأسماء اللامعة الناصعة ، فقد كان شيخًا للأزهر (١٢٤٦ هـ – ١٢٥٠ هـ) وهى السنوات الموافقة لسنة ١٨٣٠ م وسنة ١٨٣٤ م فى عز دولة محمد على .

ولكن مشيخة الأزهر مع جلالها وعظمتها لم تكن سبب شهرة الشيخ حسن العطار ، فقد تولى هذه المشيخة علماء كثيرون لم يبلغوا ما بلغه هذا الشيخ المتفتح الذهن ، العصرى التفكير من شهرة طبقت الآفاق بعد نبوغ تلميذه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى نعتبره رائد النهضة الثقافية فى مصر الحديثة .

أليس من الظلم أن نعرف التلميذ ولا نعرف الأستاذ ؟

هناك أخطاء كثيرة فى تاريخ مصر الحضارى أفدح وأخطر من أخطاء تاريخها السياسى ، وقد تسببت هذه الأخطاء فى إصدار أحكام خاطئة على حركة النهضة الثقافية المصرية فى العصر الحديث ، واعتقد بعض الكتّاب أن هذه النهضة مستوردة من أوربا ؛ لأنهم لم يعرفوا أصولها وجذورها ، فبعدت أصالتها عن عيونهم ، وظنوا أن رجلاً مثل رفاعة بك نقل من فرنسا كل مظاهر الفكر الحديث ، ولم يدركوا معنى التفاعل الذى بدأ فى مصر قبل أن يسافر الشيخ رفاعة ورفاقه إلى باريس ، وظلّ هذا التفاعل قائمًا بعد أن لمع اسم رفاعة بك ناظر مدرسة الألسن الذى جعل نصف دروس هذه المدرسة العظيمة من العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر ، وكان يلقيها علماء من الأزهر فى النحو والبلاغة والفقه والتفسير وغيرها من علوم .

لذلك كان الدور الذى قام به الشيخ حسن العطار عجيبًا غريبًا بمقياس عصره ، لم يسبقه إليه شيخ من شيوخ الأزهر ، ولم يلحقه واحد منهم أيضًا طوال العصر الحديث حتى عصر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ ولذلك أضيفت إلى مشيخته الجليلة للجامع العتيد قيمة أخرى فى تيار النهضة المصرية ، وهى الارتباط الوثيق المتين بحضارة العصر الحديث التى ظهرت فى أوربا .

ولم يكن رفاعة رافع هو التلميذ الوحيد فى هذه المدرسة ، وإن كان أنبغ التلاميذ ، فقد كان الشيخ محمد عياد الطنطاوى من نوابغ هذه المدرسة أيضًا ، وعندما طلب القيصر الروسى من محمد على إيفاد أستاذ لتدريس اللغة العربية فى جامعة (سان بطرسبورج) واسمها الآن (لينينجراد) ، رشح الشيخ العطار تلميذه الشيخ الطنطاوى لمحمد على ، وسافر الشيخ طنطاوى إلى روسيا بجبته وقفطانه وعمامته . وظلّ محافظًا على زيّه الأزهرى حتى توفى فى (سان بطرسبورج) ودفن هناك ، وهذا الشيخ الأزهرى هو أستاذ المستشرقين الروس . وهمزة الوصل بين الثقافة العربية والثقافة الروسية خلال عصر القياصرة . وألف عنه المستشرق الروسى الشهير (كراتشكوفسكى) كتابًا ترجم إلى اللغة العربية ونشر فى مقدمته صورة الشيخ الطنطاوى بجبته وعمامته .

وكان الشيخ عياد الطنطاوى شاعرًا ، وله ديوان مخطوط فى دار الكتب المصرية ، وقد اطلعت عليه ، وأدركت كيف تأثّر التلميذ الشاعر بأستاذه الشاعر ، فقد كان الشيخ العطار شاعرًا ولكنه لم يجمع ديوانه .

وقبل أن أحدثك عن شخصية الشيخ العطار ، أقول لك إن هذا الرجل كان بصره يمتد إلى الآفاق البعيدة خارج مصر ، وكان قد قام برحلات إلى ألبانيا وتركيا وبلاد الشام ، وكان يتقن بعض اللغات الأجنبية ومنها التركية والألبانية ، ولكننا لا نعرف اللغات الأخرى التى تعلمها ، ولعله تعلم اللغة الفرنسية أيام حملة بونابرت على مصر ، فقد كان يخالط الفرنسيين ، ويجالسهم مع صديقيه الحميمين : الشاعر إسماعيل الخشاب والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ، وكان هو أكثرهم علمًا وثقافةً ومعرفة .

لقد كان الشيخ حسن العطار وثيق الصلة بمحمد على ؛ لأنه كان يرشح له شباب الأزهر للسفر فى المهمات العلمية خارج مصر ، وقد حدثتك عن تلميذه الشيخ عياد الطنطاوى الذى كان أستاذًا لمدرسة الاستشراق فى روسيا ، وظل اسمه لامعًا فى تاريخ الاستشراق الروسى حتى اليوم .

ولكن . . هل كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى هو التلميذ الوحيد الذى رشحه الشيخ حسن العطار للسفر فى البعثة إلى فرنسا سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) ؟

وهل كان الشيخ رفاعة إمامًا للبعثة كما يقول المؤرخون الذين تناولوا سيرته ؟

يقول على باشا مبارك :

« إن محمد على باشا طلب إلى الشيخ العطار أن ينتخب من علماء الأزهر إمامًا للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة » .

ولذلك فإننا لا نشك فى أن رفاعة بك كان إمام البعثة ، بل إنه تقرر له مرتب يوزباشى ؛ لأن مرتبات الوظائف فى عصر محمد على كانت ترتبط بالرتب العسكرية ، ورتبة (يوزباشى) لا يمكن منحها لطالب البعثة .

وقد رشح الشيخ العطار فى هذه البعثة بعض شباب الأزهر الذين سافروا إلى باريس ، وقد وردت أسماؤهم فى سجلات هذه البعثة الأولى مع لقب (الشيخ) ، وهذا هو الجديد فى الموضوع ؛ لأن الشيخ رفاعة لم يكن هو الأزهرى الوحيد الذى سافر إلى باريس ، بل إن شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار كان يرى فتح آفاق جديدة لتلاميذه الذين جلسوا أمامه فوق حصير الجامع لتلقى العلوم الحديثة فى فرنسا ، وكان يعتقد أنهم يستطيعون هذه الدراسة .

كانت البعثة تحت إشراف المسيو جومار الذى ذكر من هؤلاء الأزهريين :

- الشيخ محمد الدشطوطى . . تخصص فى الطب والجراحة .
- الشيخ أحمد العطار . . تخصص فى الميكانيكا .

كما ذكر ثلاثةً من المشايخ عادوا إلى مصر لأسباب صحية أو لعدم أهليتهم .

وهناك شيخان آخران طبيبان تعلما فى فرنسا وهما :

- الشيخ نصر أبو الوفا .
- الشيخ إبراهيم . . الحكم .

ومما يلفت النظر أنهما احتفظا بلقب الشيخ فى إصرار ، ولم يحملا لقب الدكتور ، وقد صدر أمر من محمد على باشا فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ لتعيين الشيخ نصر بدلاً من الخواجة فرباى حكيمباشى مستشفى البحرية بالإسكندرية .

والشيخ نصر أبو الوفا حكيمباشى مستشفى البحرية بالإسكندرية هو جد الدكتور محمد نصر الذى كان وكيلاً لوزارة الصحة المصرية فى الأربعينات . وكان من مشاهير الأطباء .

لقد أصبحنا كمن يبحث عن نفسه فى الظلام .

إن الشيخ حسن العطار هو شيخ الأزهر الذى فتح الأبواب والنوافذ للنور ، وأخرج تلاميذه من صحن الجامع ليجلس واحد منهم على كرسى الجامعة فى (سان بطرسبورج) ،

وليجلس آخرون على مقاعد الدرس فى جامعة باريس ، فكان منهم أطباء وعلماء فى الكيمياء .

وكان الشيخ نفسه يمارس الطب على الطريقة القديمة التى تركزت فى أيامه داخل صفحات كتاب قديم اسمه (تذكرة داود الأنطاكى) ، كما كان يجيد كثيرًا من العلوم والفنون . ومنها علم الفلك ، وله رسالة مشهورة فى كيفية العمل بالاسطرلاب .

هذا الشيخ من عجائب الزمان .

كان أبوه عطارًا فى القاهرة ؛ ولذلك اهتم بدراسة الطب ، عندما كانت روشتة الطبيب تصرف من دكان العطار ، وقد ظلّ بعض الأطباء الذين تخرجوا فى مدرسة طب قصر العينى فى الجيل الماضى يتعاملون مع العطارين فى وصف الدواء للمريض على الطريقة المصرية القديمة ، وقد لحقتُ أحدهم أثناء إقامتى فى حلوان ، وقال لى إن الفارماكوبيا الحديثة مأخوذة من عندنا ، فلماذا لا نعود إلى الأصل ؟

رحم الله أيامًا مضت .

تعلم الشيخ حسن العطار الذى كان من أصل مغربى فى الأزهر ، وأخذ العلم عن أئمة الشيوخ ومال إلى علم الفلك والطب ، كما استهواه الأدب فأجاد الشعر والنثر . ثم قام بسياحات فى العالم الإسلامى . وصفها فى بعض كتاباته اللطيفة المسجوعة ، فقال فى وصف اسطنبول :

« الخليج القسطنطينى المتحف بعرائس القصور ، والرياض المعطرة بروائح الزهور ، وملاعب الولدان والحور . ومجتنى ضروب الملذات والسرور ، ومساحب أذيال الحبر والحبور ، حيث الفُلك يبدور الحسن فى ذلك الخليج سابحة . غادية فى ضروب المسرات رائحة ، والزوارق على وجه الماء ، تنساب كالحية الرقطاء . تتلاعب بها أمواجه . ويزيد بها للناظر سروره وابتهاجه . »

كما وصف بلاد الترك وبلاد الشام ، وأعجبته دمشق . فكتب عنها ، وزار القدس فقال :

« تنجلى بمشاهدة حرمه الشريف همومى ، وتزول غمومى ، وينشرح صدرى . وتصفو مرآة فكرى . وتعذُب مواردى ، وتحمد مصادرى ومواردى ، ناهيك برقة نسيم . ومرأى وسيم وعيش عهده غير ذميم ، وكأن ساكنه فى جنات النعيم » .

وبعد هذه السياحة عاد إلى مصر ، والتقى بالشاعر إسماعيل الخشاب فلم يفترقا .

يقول الجبرتى وهو ثالث الثلاثة :

– خالطه ورافقه ووافقه ولازمه فكان كثيرًا ما يبيتان معًا ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر وألطف من اتساق نظم الدرر ، وكثيرًا ما كانا يتنادمان بدارى لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندى ، ويطرحان الكلفات التى هى على النفس شديدة .

وقد وصف الجبرتى هذه الصداقة وصفًا شائقًا ، فيه حرارة وصدق ، وقال إن الشيخ حسن العطار وإسماعيل الخشاب ، كانا أعظم أدباء مصر فى ذلك العصر .

قال : الشيخ العطار فى موشح من موشحاته :

أمّا فؤادى فعَنْك ما انتقلا
فَلِم تخيَّرتَ فى الهوى بدلا
يامُعرِضًا عن محبّةِ الدنِفِ
ومغرمًا بالجمال والصلفِ
ومن به ذادَ فى الهوى شغفى
أما كفى ياظلوم ما حصلا
حتى جعلتَ الصدود والملـلا .

فرد عليه إسماعيل الخشاب قائلاً :

يهتز كالغصن مال معتدلا
أطلَع بدرًا عليه قد سُدلا
يزرى بسمر الرماح إن خطرا
ساحرُ جفْنٍ لمهجتى سحرا
علم عينى البكا والسهرا
فكيف أبغى بحبِّه بدلا
وليس لى عنه جَارَ أوْ عدلا

وبعد أن توفى إسماعيل الخشاب تولى الشيخ حسن العطار جمع شعره وطبع ديوانه ولكن أحدًا لم يجمع شعر العطار ولم يطبع ديوانه بعد وفاته . بل ضاع شعره .

ويقول الجبرتى إن الشيخ حسن العطار سكت عن نظم الشعر وكتابة النثر بعد وفاة صديقه

الشاعر إسماعيل الخشاب ، واشتغل بتقرير العلوم وتحقيقها . والتأليفات المتنوعة فى الفنون المختلفة ، وذكر أنه سعى فى خدمة العلم ، وتدريس الكتب الصعبة ، حتى أصبحت له شهرة بين الطلاب فى الأزهر .

وعن طريق العلم وصل إلى مشيخة الأزهر . وكان سابقًا لعصره من ناحية اهتماماته العلمية فقد شاهد بنفسه مظاهر العلوم الحديثة التى جاءت مع الحملة الفرنسية إلى مصر ، ودخل مع صديقه الجبرتى معامل الكيمياء والطبيعة ، ولم يتعجب مما رأى كما فعل الجبرتى ، ولم يصبه الذهول ، فقد كانت خلفيته العلمية تمكنه من إدراك حقائق هذه العلوم الحديثة التى شاهدها ؛ ولذلك رشح لمحمد على بعد سنوات قلائل بعض شباب الأزهر للدراسة فى فرنسا كما قلت لك ، وحقق بعضهم نجاحًا فى علوم الطب والجراحة والكيمياء ، كما حفظوا لأستاذهم وشيخهم أعظم ما يملكه الأزهر من ألقاب وهو لقب (الشيخ) . وكأنهم أرادوا بذلك أن يقولوا للدنيا إن الأزهر قادر على ممارسة العلوم الحديثة ولو كانت فوق رؤوس علمائه العمائم . . وقد ظلت العمامة فوق رأس رفاعة بك أنبغ تلاميذ الشيخ العطار .

كان ذلك فى سنة ١٨٢٦ ميلادية .

ولكن ماذا جرى فى الأزهر خلال قرن من الزمان بعد ذهاب الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ؟

علماء ومشايخ أنكروا العلم الحديث . وشيوخ للأزهر زعموا أنه ضلال وكفر مبين . وواحد منهم أنكر كروية الأرض عندما ألف ألفيةً فى الجغرافيا . وقال :

والأرض قالوا إنها كره .

وقولهم هذا ما أكفره .

إن السطور القليلة المبعثرة بين صفحات الكتب عن حياة هذا الرجل لا تكفى لمعرفته ، بل إن صديقه الجبرتى وهو مؤرخ كبير ، لم يطلعنا على ملامح شخصيته بصورة واضحة .

ولكننا نستوضح بعض جوانب هذه الشخصية الفريدة النادرة مما كتبه صاحبها وهو صفحات قليلة لم تبلغ المائة صفحة ، جمعها فى كتاب صغير قدمه إلى مكتبة الجهادية المصرية فى عصر محمد على .

كان الشيخ العطار عالمًا يقدر كل العلوم على اختلافها . ولكنه يرى بعين الصواب أن

العلوم الشرعية هى أرقى العلوم ، وأنها لا تمنع من دراسة أى علم من العلوم ، بل إنها تحتاج إلى معرفة كل العلوم .

كتب فى إجازة لأحد تلاميذه . وهى شهادة التخرج كما نقول اليوم :

« والعلوم وإن كثرت أنواعها ، وتباينت أوضاعها ، فأجلّها قدرًا . وأرقها ذكرًا . وأبهاها حسنًا . وأفضلها اقتناءً . وأعلاها ارتقاءً . وأغزرها ارتواءً . وأكملها إشراقًا . وأجملها اتساقًا . العوم الشرعية . التى هى مقاصدها . ولأجلها تلتمس فوائدها » .

ومعنى ذلك أن كل العلوم تنتهى إلى العلوم الشرعية ؛ لأن مقاصد هذه العلوم هى الوصول إلى علم الشريعة .

وكتب فى إجازة أخرى لطالب آخر تخرج على يديه :

« فلان . . انتظم سلك دروس العلماء الأزهريين .

استجاز الفقير (الشيخ حسن العطار) بعد أن لازمه فى كتب عديدة ، وفنون مفيدة ، من المعقول والأدب . وهما مما يدرك به الطالب للعلم الأرب ، وللعلوم الشرعية نعم الوسائل ، والتحلى بهما تتزين به المجالس والمحافل . فأجزته بما تجوز لى روايته . وما يسند إلى درايته . من معقول ومنقول ، وبما لى من التأليف والنقول » .

وأنت ترى أن شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار يمنح تلاميذه الإجازة ، أى الشهادة النهائية فى العلوم العقلية والعلوم الأدبية والعلوم الشرعية .

ثم جاء من بعده أقوام حرموا تدريس علم المنطق والعلوم الفلسفية فى الأزهر ، وهى العلوم العقلية . بدعوى أنها تفسد العقيدة أو تضيع الشريعة .

وعندما غنّت أم كلثوم قصيدة :

وحقّك أنت المنى والطلب

وأنت المراد وأنت الأرب

قلت لأصحاب الموسيقى إن هذه القصيدة من شعر شيخ الإسلام وشيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى المتوفى يوم الخميس السادس من ذى الحجة سنة ١١٧١ هـ . (١٧٥٧ م) أى منذ أكثر من مائتى سنة .

يذكرنى هذا الشعر الظريف بأشعار مولانا الإمام الشيخ حسن العطار ، وقد نقلت لك مقطعًا من إحدى موشحاته ، ومن لطائف شعره قوله عن الفرنسيين أيام حملة بونابرت .

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم .

فى مصرنا ما بين حمّار وخمار .

لقد كان الشيخ العطار كما وصفه الجبرتى أديبا شاعرًا لا يشقّ له غبار ، ولكن شعره مفقود ، وليس له ديوان كما قلت لك .

ومن ألطف أعماله الأدبية أنه جمع أقوالاً مأثورةً من الشعروالنثر وضمها فى كتابه الصغير الذى حدثتك عنه ليتعلم منها تلاميذه فنون البلاغة ، وهذه المختارات تدل على ذوق رفيع ومنها أبيات شعر ، ومنها شطور أبيات ، وعندما قرأتها تذكرت أنها كانت من محفوظات التلاميذ فى المدارس فى أيامنا . . فهل نقلوها عن هذا الشيخ الأديب الشاعر العالم الظريف ؟

لا أريد أن أنهى الحديث عن هذا الأستاذ العظيم الذى يكفيه فخرًا أنه علّم رفاعة بك فاستحق أن يوصف بأنه أستاذ الأساتذة .

ولكن ماذا أصنع ؟ لم يبق عندى كلمة أقولها .

ألم أقل لك بين السطور إننا أصبحنا كمن يبحث عن نفسه فى الظلام ؟

كنت أحب أن أزيدك معرفةً بهذا الأستاذ الجليل . . ولكن ما باليد حيلة .

رفاعة بك

أول مؤلف للأناشيد الوطنية

هذا جانب جديد من فكر رفاعة بك رائد الثقافة المصرية الحديثة ، فقد ذكر كثيرون من المؤرخين أنه ترجم نشيد المارسلييز من اللغة الفرنسية إلى العربية ، وقد حاولت العثور على هذه الترجمة فلم أصل إلى نصها حتى فى مكتبة رفاعة بك فى سوهاج بعد أن قلبت فهارسها ، وراجعتها مراجعةً دقيقةً .

ولكن رفاعة بك ترك لنا ثروة من المنظومات أطلق عليها اسم الوطنيات ، وهى لون جديد من النظم العربى نطلق عليه اسم النشيد فقد عرفنا اللحن الموسيقى الذى يؤدى من أجل مخاطبة الجماهير ، وليس من أجل الطرب .

لقد ابتكر رفاعة بك هذه المنظومات فى الأدب العربى ، وهى نوع من الومضات الخاطفة التى قد لا تتسنى لكبار الشعراء ، فقد عجز أمير الشعراء أحمد شوقى عن كتابة نشيد تردده الجماهير ، وكان النشيد الذى فاز فى مسابقة النشيد الوطنى المصرى هو نشيد الشاعر محمود محمد صادق الذى يقول فى مطلعه :

بلادى بلادى فـــداك دمى
وهبت حياتى فدى فاسلمى

وتراجعت أيضًا أناشيد شاعر النيل حافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد أمام نشيد محمود صادق ، لا بسبب عبقرية صادق الخارقة ، ولكن بسبب الومضة الخاطفة ، وهذا هو ما حدث بالنسبة لنشيد سيد درويش الشهير :

بلادى . . بلادى

وهو نفس مطلع النشيد الوطنى الذى كتبه صادق ، مع أنه ليس لأحدهما ، فإن صاحب المطلع هو الزعيم مصطفى كامل الذى قال هذه الكلمة فى خطبة شهيرة ألقاها فى مسرح زيزينيا بالإسكندرية ، وقال فيها :

بلادى . . بلادى . . أنت أنت الحياة . . ولا حياة إلّا بك يامصر .

لقد اشتهرت الأناشيد الوطنية فى مصر خلال ثورة ١٩١٩ ، ثم أصبحت لهذا الفن الشعرى قواعد وأصول تربط بين الكلمات والألحان ، ولكن بداية هذا الفن كانت عندما ألّف رفاعة بك ولكن بداية هذا الفن كانت عندما ألّف رفاعة بك منظوماته الوطنية وجعلها على ألحان الموسيقى القديمة ، ومنها :

« مذهب »

ياصاح حب الوطن حلية كل فطن

(دور)

محبة الأوطان من شعب الإيمان
فى أفخر الأديان آية كل مؤمن

والمذهب ثابت فى النشيد كله ، ولكن الأدوار تتغير ومنها هذا الدور :

مصر لها أيادى عليا على البلاد
وفخرها ينادى ما المجد إلّا دَيْدنى

وأنت ترى أن المذهب ينشد مع كل دور ، ومن هذه الأدوار :

دار نعيم زاهية ومعدن الرفاهية
آمرة وناهية قِدْما لكلّ المدن
قوة مصر القاهرة على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهرة خُصّت بذكر حسن

ومن الواضح أن رفاعة بك قد ركب هذا النظم على أنغام موسيقية معروفة عند الملحنين فى أيامه وهى أنغام الموسيقى الشرقية ، ولكن الذى حدث فى عهد محمد على هو ظهور نوع آخر من الموسيقى العسكرية عندما أنشئ الجيش المصرى الحديث .

وعلى أنغام هذه الموسيقى العسكرية نظم رفاعة بك بعض الأناشيد ومنها نشيد تقول بعض كلماته :

ننظم جندنا نظما عجيبا يعجز الفهما
بأسد ترعب الخصما فمن يقوى يناضلنا
رجالٌ ما لها عدد كمال نظامها العدد

obeikandi.com

حلاها الدرع والزرد سنان الرمح عاملنا

* * *

لنا فى الجيش فرسان لهم عند اللقاشان
وفى الهيجاء عنوان تهم به صواهلنا

لقد استطاع رفاعة بك إبداع هذا الفن الجديد فى الشعر العربى ، بل إنه حاول نشره عن طريق تلاميذه الذين على طريقته ، وقد نبغ منهم فى هذا اللون من النظم السيد صالح مجدى .

نظم مجدى خمس عشرة منظومة من هذه الوطنيات ، وعرضها على والى مصر سعيد باشا فأمر بتلحينها على الموسيقات العسكرية فى أداء التحية لدى التشريفات الخديوية والاستقبالات العمومية والمواسم الميلادية .

وهذه أول مرة فى التاريخ المصرى الحديث ، يعترف فيها بالنشيد القومى ، ولكن هذه الأناشيد أو الوطنيات التى ألفها السيد صالح مجدى لم تصل إلى النص المطلوب للنشيد ؛ لأنها ارتبطت بشخصية الوالى مع ارتباطها بالوطن فى نفس الوقت ، ومعنى ذلك أن نصوصها لم تصل إلى حد التجريد القومى فى نشيد واحد مثل المارسلييز ، نشيد فرنسا القومى ، مع أنها كانت منذ البدايات التى قام بها رفاعة بك تحاول تحقيق هذا الهدف .

وليس من العيب أن يعجز رفاعة بك وتلميذه السيد صالح مجدى عن الوصول إلى النشيد القومى المصرى فى ظل دولة محمد على أو دولة سعيد ؛ لأن هذه الطفرة المفاجئة كانت صعبة المنال ، ولم يكن تكوين الدولة الفردية الاستبدادية مما يسمح بظهور نشيد وطنى مصرى مثل المارسلييز الذى خرج من أتون الثورة الفرنسية غير أن المحاولة كانت مثيرةً حقًّا .

كيف فكر رفاعة بك فى تأليف هذه الأناشيد التى سماها الوطنيات كما ذكرت لك ، ولماذا انصرف تفكيره إلى إبداع هذا اللون من النظم الذى لم يمتلك هو ولا تلميذه صالح مجدى كل أدواته ؟

لقد فسر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى هذه الظاهرة تفسيرًا عاطفيًّا ، ونسبها إلى الوطنية المتدفقة عند رفاعة بك ، ولكن هذا التفسير الجميل لا يصل بنا إلى حقيقة التفكير الحضارى والتقدمى عند رفاعة بك . فإن العاطفة الوطنية وحدها لا تكفى لتحقيق هذه المحاولة الجريئة التى تحتاج إلى عناصر فنية جديدة من ناحية التركيب الشعرى ، ومن ناحية الفن الموسيقى .

ويبدو أن رفاعة بك لم يصل إلى تحقيق أهدافه من ناحية إنشاد نظمه على أنغام الموسيقات العسكرية فى عهد محمد على ، وهو نفسه لم يذكر أن وطنياته استخدمت فى حفلات التشريفات أو غيرها من الحفلات الرسمية ، مع أن الموسيقى العسكرية كانت قد استحدثت فى الجيش أيام محمد على ، وقد وصفها كلوت بك وصفًا شائقًا ، وذكر أنها موسيقى أوربية وليست شرقية مما كان معروفًا فى مصر ، وما زال موجودًا حتى اليوم .

وفن النشيد الوطنى يصعب أداؤه على طريقة المطربين ، وأنغام (أمان يالالى) أو (طربوشه مايل على خده) ، ولو حدث هذا لكان من المساخر لأن هذا الفن جماعى فى الأصل ، ولا يصلح لغناء التطريب الفردى وما يصاحبه من كورس المنشدين الذين كان يطلق عليهم اسم (السنيدة) فى الجيل الماضى ، وهم الذين يسندون المطرب فى غنائه عند بعض المقاطع .

إننى لا أقطع بأن وطنيات رفاعة بك لم تنشد على أنغام الموسيقات العسكرية فى عهد محمد على ، ولكننى خلال قراءاتى فى الوثائق وبين السطور ، لم أقرأ شيئًا عن ذلك ، رغم أن رفاعة بك استخدم كلمة الدور والمذهب فى نصوصه الشعرية ، وهاتان كلمتان موسيقيتان فى العرف السائد ، وهما من ألفاظ الموسيقى الشرقية .

ولكن الذى لا شك فيه أن صالح مجدى استطاع تقديم منظوماته للتلحين والعزف على الموسيقات العسكرية كما قلت لك .

ألف صالح مجدى وطنياته بطرق متعددة .

* طريقة الملاحم .
* طريقة الغناء الشرقى المنغم ومنه التواشيح وأغنيات المذهب والدور .
* طريقة النشيد المتحرر من المذهب تحررًا كاملاً .

وأنت تسألنى التفسير .

لقد كتب صالح مجدى ملحمةً مصريةً كاملةً ، استخدم فيها المذهب وهو المطلع المتكرر ، واستخدم فيها الأدوار التى لا تكرر ، ولكن هذا الاستخدام الذى حشاه حشوًا بمدح سعيد باشا يمكن تجريده لحكاية التاريخ المصرى منذ سبعة آلاف سنة ، وهذه الملحمة المصرية تقول كلماتها :

مصرايم وضع الأساس من بعد أحكام القياس

وسعيد للخلق ساس وبعزمه أبدى الحماس
بوزريس فى بعد السير قد شاد (قوصا) وافتخر
وبحزمه بلغ المراد
أبوابها فيما ظهر مائة كما جاء الخبر
وجنوده عدد الجراد
موريس سلطان نبيل ملك الورى قبل الخليل
فحباهم عند الرحيل ببحيرة الفيض الفضيل
للرى فى العام الجماد
شوريد فى سفر الأمم فى زعمهم شاد الهرم
حتى إذا الطوفان عم آوى إليه واعتصم
مما طغى منه وزاد
واينتفيس بلا محال ربى بأمطار النوال
مع نجله زمر العيال فسما على كل الرجال
بمناقب الملك الجواد
وستروستريس أبوالصفاح والسمر فى يوم الكفاح
أسدى لدولته النجاح وثار خده غرس الفلاح
ولمصر بالعدل جاد
ناخوس فى وصل البحار خاب الرجا منه وحار
والعرب أرباب الفخار لم يلحقوا منه الغبار
والداورى بالقصر ساد
والروم أصحاب الطرب فى مصر قد بلغوا الأرب
فجلاهم عنها العرب أهل الشهامة والرتب
وأولو السماحة والرشاد
الظاهر الليث الفجور وأزال عن مصر الفتور
وأنا لها طيب الرقاد

هذا النظم الثقيل الذى نقلت لك بعضه ، كان من خصائص العصر الذى كتب فيه ،

وهو ليس من الشعر فى شىء ، ولكنه يحمل دلالات هامة فى تاريخ النهضة الأدبية المصرية ، فهو لون من شعر الملاحم ، وأنت ترى شبيهًا له فى ترجمة بطرس البستانى لإلياذة هوميروس بعد ذلك بسنوات طويلة .

لم يكن رفاعة بك ولا تلميذه صالح مجدى شاعرين ، ولكنهما كانا ينظمان الشعر بهذه الطريقة ، أملاً فى الوصول إلى النشيد الوطنى المصرى .

قال صالح مجدى فى مطلع نشيد من هذه الأناشيد :

جيش سعيد يامصرى
أبشر بالفتح وبالنصر

وكان سعيد باشا قد أعدّ جيشًا من أصحاب الأجسام ، ورويت عنه روايات كثيرة فى محاولة إظهار البطولة العسكرية فى ميادين ليست هى على كل حال ميادين القتال ، فقد ذكروا عنه أن فرش البارود على مساحة من الأرض ، ثم امتطى صهوة جواده ، وأشعل السيجار ، وجرى فوق البارود ، واعتبر هذه الحركة من ألوان البطولة لأن شعلة السيجار لم تسقط على البارود لتشعله ، فتحدث فرقعة قد تنسف الحصان وراكب الحصان .

وسعيد باشا هو الذى باع امتياز حفر قناة السويس للمقامر الفرنسى ديلسبس ، وكان الثمن طبق مكرونة ، ضحك به ديلسبس على ذقن الباشا .

وهذا الوالى هو الذى وافق على إنشاد منظومات صالح مجدى على الموسيقات العسكرية ؛ لأنها توافقت مع أهوائه فى صنع جيش من الجنود طوال القامات ، ولم يفهم سعيد باشا ما أراده رفاعه بك أو تلميذه صالح مجدى من محاولة وجود نشيد قومى مصرى ؛ ولذلك تبددت هذه الجهود فى الهواء ، وساعد على ضياعها أنها كانت ترتبط بالوالى سعيد باشا ، وكان بعضها يقال فى مناسبة عيد ميلاده ، ومنها موشح كتبه صالح مجدى ، وهو ليس من الوطنيات ، ولكنه يحمل الدلالات على الجو الذى كان سائدا .

يقول صالح مجدى :

وفى ميلاد أبى الاسعاد
أتى القصاد للاستئناس
فكل قال بصوت عال
له الإقبال سعيد الناس

ولكن . . ما هى قيمة هذه الوطنيات التى كتبها رفاعة بك وصالح مجدى ؟

عندما اختلطت الرغبة فى تأليف الأناشيد الوطنية مع الرغبة فى إرضاء الحاكم ، سقطت فكرة وجود النشيد الوطنى المصرى ، مع أن بذورها كانت موجودة كما ذكرت لك ؛ ولذلك لم يوجد شاعر أو نظام يكتب الوطنيات بعد رفاعة بك وتلميذه صالح مجدى .

تصور أن الحركة الشعرية المصرية مع تجـردها وانطلاقهـا لم تلتفت إلى هذا الفن الشعرى الجديد الذى ابتكره رفاعة بك وسار على نهجه تلميذه صالح مجدى ، مع أن بعض تلاميذ رفاعة بك كانوا يقولون الشعر ومنهم إبراهيم بك مرزوق ، وله ديوان لطيف اسمه (الدر البهى المنسوق) ولكنه لم يكتب أو ينظم وطنية واحدة ، وهو زميل صالح بك مجدى ، وكلاهما تلميذان لرفاعة بك .

وبعد ذلك جاء الشاعر صفوت الساعاتى والشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر المنفلوطى . . ثم البارودى العملاق . . وإسماعيل باشا صبرى . . وأحمد شوقى . . وحافظ .

ولم يظهر النشيد الوطنى أول مرة إلا عندما أنشد سيد درويش :

بلادى . . بلادى .

وكان ذلك فى عنفوان ثورة ١٩١٩ ، وما زلنا فى حيرة : من الذى ألف هذا النشيد ؟

ليس معنى ذلك أن مصر لم تعرف الغناء الجماعى ، فقد عرفته فى عصر المماليك ، وهو نوع من الفولكلور ، ولكنه ليس نشيدًا على شروط النشيد : لأن الإنشاد الجماعى فى المواقف الوطنية أو الأفراح أو الإنشاد الجماعى فى المواقف الوطنية أو الأفراح أو الإنشاد الدينى لا يحمل مقومات النشيد الوطنى الذى تعرفه الشعوب ، ونعرفه نحن أيضًا منذ ثورة ١٩١١ ، وهو الذى حاول رفاعة بك أن يحققه فى مصر .

ويبدو أن الأناشيد الوطنية لا تنبع من ضمائر الشعور فى ظل الحكم الاستبدادى ، ولكنها تنبع من الثورات ، وهذا هو ما حدث فى فرنسا أيام الثورة ، كما حدث فى مصر عندما قامت ثورة ١٩١٩ .

ثم يبقى بعد ذلك شىء هام فى تاريخ الآداب العربية الحديثة ، وهو أن رفاعة بك كان سابقًا لعصره عندما كتب وطنياته ، وهى بذور الأناشيد الوطنية ، وهذا السبق فى التفكير يدل على أن هذا الأستاذ العظيم كانت له مواهب خارقة من ناحية الفكر المستقبلى لمصر وللشعوب العربية كلها ، وليس من الضرورى أن يكون شاعرًا أو أميرًا للشعراء .

كان رفاعة بك أميرًا للفكر.

وقد تسألنى قبل أن أودعك فى هذه الكلمات :

-- لماذا سميت رفاعة رافع الطهطاوى باسم رفاعة بك ؟

أقول لك ياصاحبى إن اسم (رفاعة بك) كان يكفى لمعرفته فى كل مكان فى مصر. وكان يكتب فى كل وثيقة ، وفى كل خطاب أو ورقة أو على صدر كتاب.

ظل (رفاعة بك) يحمل هذا اللقب ، ولا يحمل لقب باشا.

وظل (شوقى بك) أمير الشعراء يحمل هذا اللقب ولا يحمل لقب باشا.

أردت مداعبتك عندما جعلت عنوان هذا المقال (رفاعة بك) حتى تعلم أن أعلام العلماء لا يزيدهم اللقب شيئًا ، وأن أمراء الشعراء لا ينتقص من قدرهم أنهم لا يحملون الألقاب.

لقد كان بعض تلاميذ (رفاعة بك) من الباشوات الذين نسينا بعض أسمائهم .. ولكننا سنظل نذكر اسم رفاعة رافع الطهطاوى بلا لقب .. لأن اسمه أسمى من كل الألقاب.

obeikandl.com

الأستاذ محمد بيومى أفندى

عالم رياضيات فقدته جامعة باريس

عندما يكون الأستاذ أصغر سنًّا من التلميذ ، يصبح الحديث عن العبقرية أمرًا مطلوبًا . فإذا كان هذا الأستاذ الشاب قد رشحته جامعة باريس للتدريس فى كلية الهندسة فإن البحث عن سمات عبقريته يصبح أمرًا واجبًا .

ولم يكن هذا الأستاذ الشاب فرنسيًّا حتى يتولّى تدريس العلوم الرياضية فى جامعة باريس العريقة ، ولكنه كان محمد بيومى أفندى الذى طرده الوالى عباس باشا الأول من القاهرة ، وعينه مدرسًا للحساب فى مدرسة الخرطوم الابتدائية عندما طرد زميله رفاعة بك وعينه ناظرًا لهذه المدرسة .

منذ أكثر من ثلاثين عامًا لم تفارق صورة محمد بيومى خيالى ، ومازلت أتخيلها وكأننى أراه أمامى ، وأنا لم أر له صورةً مرسومةً ، فقد اختطفه الموت قبل أن يجلس أمام رسام ليرسم صورته ، كما صور الأكابر من زملائه . . أو من تلاميذه ، وأنا أستوحى ملامح الشخصية من الصور المرسومة فى بعض الأحيان، ، وقد أعجبنى كتاب عن شاعر الألمان (يوهان ولتجانج فون جوته) كان من أعاجيب الكتب لأن مؤلفه جعل عنوانه (جوته فى صور) ، وكلما قلبت صفحات هذا الكتاب وتأملت الصور المرسومة والصور الفوتوغرافية ازداد حبّى للشاعر ، وزدت معرفتى به ، مع أن الصور الفوتوغرافية ليست إلا صور أماكن وقصور وغرف لأن عصر جوته لم يكن قد وصل إلى آلة التصوير الفوتوغرافى .

وعندما قرأت فى كتاب الجبرتى أن المشايخ كانوا يكبرون العمائم ، ويوسعون أكمام القفاطين والجبب والفراجيات كلما كبر قدرهم وشاهدت الصور المرسومة للمشايخ الكبار أيام الحملة الفرنسية ، ازداد فهمى لحقائق التاريخ ، فقد كانت عمامة الشيخ عبد الله الشرقاوى مما تنوء بحمله الرؤوس لأنه كان شيخًا للأزهر . وقد كبر عمامته لتليق بهذا المنصب الجليل .

وقد تخيلت صورة محمد بيومى من واقع عصره . فهو أفندى صغير يسوى شاربه ولا يطلق

لحيته . ويرتدى الثياب الافرنجية . ويضع على رأسه طربوشًا يغطى أذنيه وسوالفه وشعره الطويل . فقد كانت هذه هى موضة عصره .

وتخيلته أسمر الوجه وسيمًا . براق العينين يشع الذكاء من قسمات وجهه قبل أن يشع من عينيه .

ثم تخيلته مرةً أخرى فى زى زميله الذى سافر معه فى البعثة إلى باريس (رفاعة بك) بالثياب المصرية المقصبة والعمامة المسواة بشال من الحرير الفاخر . وهى ليست مثل عمائم المشايخ . ولا جبته وقفطانه على نمط قفاطين المشايخ وجبهم . ولكنها محبوكة الأطراف فى تنميق ودقّة . ولها وشى من الحرير المقصب بالذهب .

وقد تراوحت صور محمد بيومى فى خيالى وأمام عينى . لسبب مجهول لا أدريه .

هل هو الحب لهذا العبقرى مجهول التاريخ ؟

هل هو الرغبة فى معرفته عن قرب . وهو الذى أطاحت به مظالم عباس باشا الأول فأصيب بضربة شمس فى الخرطوم أنهت قصة عبقريته ؟ .

فى بعض الأحيان يصبح المجهول معلومًا ، ويصبح المعلوم مجهولاً ، ثم تنتهى إلى كلمة بلا معنى !

– لست أدرى ! !

يغيب العقل . ويتوارى الوجدان خلف ضباب الزمن . ثم يصبح الإنسان خرقةً مهلهلةً بلا عقل ولا قلب . . وهذا هو ما يحدث فى فترات الضياع عندما يصبح الإنسان داخل دائرة (لست أدرى) . .

إن مأساة الأستاذ محمد بيومى جعلتنى أقول لنفسى .

– لست أدرى .

ولم يكن السبب هو أننى عجزت عن معرفة تفصيل تاريخ حياته ، ولكن لأننى وقفت أمامه مذهولاً لست أدرى كيف استطاع الوصول إلى هذه العبقرية الفذة الخاطفة التى أحرقتها ضربة شمس أصابت رأس صاحبها تحت سماء الخرطوم ؟

لقد كتب أمين باشا سامى مؤرخ الحركة العلمية فى مصر منذ عهد محمد على حتى عصر إسماعيل . تاريخ حياة الأستاذ محمد بيومى فى أسطر . كانت أقصر من كتابة نعى لبائع كاوتشوك أو تاجر سيارات ينشر فى جريدة يومية .

وهذه هى السطور . أعيد لك كتابتها . لنقرأها معًا :

« سافر لفرنسا فى سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٦ م وحضر فى سنة ١٢٥٠ هـ بعد أن تمم دراسة المهندسخانة بفرنسا . وتعين مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاق فى السنة المذكورة . وتلقى عليه كثير من الذين هم أكبر منه سنا فى عصره مثل سلامة باشا وإسماعيل باشا محمد ومحمود باشا الفلكى وعامر بك . ووكل لعهدته وهو مدرس بالمهندسخانة استكمال معارف كل من طايل ودقلة المعيدين بها لأنهما حضرا من أوربا بدون تتميم دراستهما . وله جملة مؤلفات منها كتب (جر الأثقال) وكتاب (حساب المثلثات) وكتاب (الجبر) وغيرها التى طبعت فى عهد محمد على باشا .

وفى عصر عباس باشا تعين مدرسًا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم بأمر صدر منه . وتوفى بها فى منفاه . وهو من أعلم العلماء فى الرياضة .

وقد حضر أحد رفقائه من فرنسا لرؤيته بالخرطوم بتوصية من حكومة فرنسا فى سنة ١٨٥٠ م . وبعد رؤيته طبع كتابًا خاصًّا بما رآه عنوانه (محمد بيومى فى منفاه – سنة ١٨٥٠ م) .

وأنا أكتب عن الأستاذ محمد بيومى بعد مائة وثلاثين عامًا من صدور هذا الكتاب الفرنسى الذى ألفه أحد زملائه عنه بعد زيارته فى الخرطوم وقبل أن تنتهى رحلته الترابية الخاطفة . ولكننى لم أستطع الوصول إلى هذا الكتاب الذى حدثنا عنه أمين باشا سامى . وأعتقد أنه قرأ الكتاب أو شاهده على أقل تقدير ؛ لأن هذا المؤرخ الذى نسيناه فى تيار (لست أدرى) كان من أعظم المحققين المدققين . بل إن كتابه الموسوعى الضخم الذى سماه (تقويم النيل ،) يعتبر أعظم سجل للتاريخ المصرى الحديث منذ عصر محمد على حتى عصر إسماعيل . وهو كتب وثائق نادر لأنه جمع ما استطاع من وثائق هذا العصر وترجم ما كان منها بالتركية أو الفرنسية إلى اللغة العربية .

ولكن تعريفه بالأستاذ محمد بيومى اقتصر على هذه السطور القليلة التى نقلتها لك . مع أن هذا الأستاذ كان من مشاهير عصره . حتى أن الحكومة الفرنسية أرسلت إليه أحد زملائه الذين درسوا معه فى باريس للاتفاق على السفر إلى فرنسا والتدريس فى كلية الهندسة بجامعة السوربون .

كانت مأساة محمد بيومى مثل غيره من الأساتذة الذين شتّتهم عباس باشا الأوّل بعد أن

أغلق المدارس فى مصر بسبب حصانه الأحمرانى الذى نفق بعد أن عجز الأطباء البيطريون عن علاجه . فأغلق مدرسة الطب البيطرى . وطرد كل الأطباء البيطريين من خدمة الحكومة . ثم استهواه الشيطان فأغلق كل المدارس . وأصدر أمره الغريب بتعيين رفاعة بك أستاذ الأساتذة ناظرًا لمدرسة الخرطوم الابتدائية كما عين النوابغ من أساتذة المهندسخانة وغيرها من المدارس العليا مدرسين فى هذه المدرسة مع ناظرهم رفاعة بك .

بسبب الحصان الأحمرانى توقفت النهضة فى مصر . ومات محمد بيومى . ولم يكن هو الضحية الوحيدة لجنون عباس الأول ، فهناك زميل آخر له هو (أحمد طايل أفندى) الذى ذهب إلى الخرطوم صحبة رفاعة بك والأستاذ بيومى ، وعاد من منفاه فى أول حكم سعيد باشا مصابًا بالحمى ، وتوفى بعد وصوله إلى القاهرة بليلتين .

وكان (أحمد طايل) من أبناء إحدى قرى مركز طوخ بالقليوبية وبعد أن تعلم فى مصر أرسل فى بعثة إلى فرنسا لدراسة الهندسة ، وعاد فى سنة ١٨٣٥ م ، وعين بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيدًا لدروس الأستاذ محمد بيومى ، ثم عيّن مدرسًا للعلوم الميكانيكية والجبر ، ثم مهندسًا للركاب العالى سنة ١٨٤٢ فى عهد محمد على .

ثم حدثت مأساته فى عصر عباس الأوّل كما قلت لك ، وكان الرجل الثانى الذى اختطفه الموت بعد زميله محمد بيومى .

قال على باشا مبارك عن الأستاذ أحمد طايل :

« كان قصير القامة ، صغير الجسم ، كثير الفهم ، لا يبالى بأكثر الأمور ، وله جرأة على الأمراء وإقدام . وكان محبًّا لتلاميذه يرغب فى تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم » .

أما الأستاذ بيومى فأصله من دهشور بالجيزة ولكننا لم نصل إلى معرفة تفصيلات عن تعليمه فى مصر أو تاريخ ميلاده . أو أسرته وأهله . . مع أنه كان نابغة عصره ، وكان يقفز إلى المجد قفزًا ، حتى قال عنه على باشا مبارك إنه كان أستاذًا ومرجعًا لكثير من نوابغ المهندسين المصريين وكان إليه المرجع وعليه المعول فى مدرسة المهندسخانة .

وقد نقل إلى قلم الترجمة بوزارة المعارف ، واشتغل مع زميله رفاعة بك ، ولا نعلم ظروف نقله من عمله المرموق كبيرًا للأساتذة فى مدرسة المهندسخانة إلى وظيفة مترجم فى قلم الترجمة ولكن أعداء النهضة المصرية من الحكام الجهلاء هم الذين أغلقوا مدرسة الألسن وعيّنوا ناظرها أستاذ الأساتذة رفاعة بك رئيسًا لقلم الترجمة . . ثم عينوه ناظرًا لمدرسة ابتدائية

فى الخرطوم وأبعدوا معه زملاءه ومنهم محمد بيومى وأحمد طايل وغيرهما ممن لم نصل إلى أسمائهم وسط زحمة الأحداث . . وظلام هذا العصر الذى تولى فيه الحكم وال مجنون ، حطم دعائم النهضة المصرية الحديثة بسبب حصان أحمرانى نفق بين أيدى الأطباء .

لقد تألقت حياة الأستاذ محمد بيومى فى مدرسة المهندسخانة ببولاق عندما أصبح كبيرًا للأساتذة ، فقد كان الأكابر من أساتذة هذه المدرسة العظيمة معيدين له ، فهو لم يعلم التلاميذ وحدهم ، ولكنه كون جيلاً من الأساتذة كان منهم تلميذه وزميله الأستاذ أحمد طايل الذى شاركه مأساته فى الخرطوم واشتغل معه مدرسًا فى مدرستها الابتدائية كما حدثتك عنه . ثم توفى بعد وصوله من منفاه إلى القاهرة بليلتين اثنتين .

ومن هؤلاء المعيدين الذين رعاهم الأستاذ بيومى وعنى بهم ، الأستاذ محمد دقلة بك ، وأصله من بلدة بسيون مركز كفر الزيات ، وقد سافر إلى فرنسا فى البعثة سنة ١٨٢٨ وعاد سنة ١٨٣٥ ، وعين معيدًا لكبير الأساتذة بالمهندسخانة محمد بيومى أفندى ، ثم عين بعد ذلك مدرسًا لعلوم الجبر وهندسة الرى والقناطر والجسور . ووكيلاً للمدرسة مع استمراره فى إلقاء الدروس .

قال عنه على باشا مبارك :

وأكثر المهندسين تلقوا عنه ، وكان حسن الإلقاء ، يجتهد فى التعليم ، ويحث على الفهم وكان من أعظم المهندسين .

وسن تلاميذه (سلامة باشا إبراهيم) مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ثم مفتش عموم ديوان وزارة الأشغال . وكان من كبار المهندسين وقد اشترك فى إنشاء الترعة الإبراهيمية فى صعيد مصر ، وإقامة القناطر عليها .

ومن هؤلاء التلاميذ أيضًا (إسماعيل باشا محمد) الذى كان ناظرا لقلم الهندسة ، ومفتشًا لرى الوجه القبلى ، ثم أصبح رئيسًا لمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ .

أما نابغة العلوم الفلكية فى عصره ، الشهير محمود حمدى باشا الفكى . فإنه واحد من تلاميذ كبير الأساتذة بيومى أفندى .

ومنهم (عامر بك سعد) أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية .

كثيرون هم تلاميذ الأستاذ محمد بيومى أفندى الذى كان له الفضل الأكبر فى إنشاء المدرسة الهندسية الحديثة فى مصر ، عندما استطاع تخريج أمثال هؤلاء الأكابر الذين زينوا

الحياة المصرية بنور العلم ، وكانوا الكواكب الساطعة فى سماء النهضة .

لقد كان بعض أعضاء البعثات يعودون إلى مصر قبل إتمام تعليمهم فى فرنسا ، لأسباب كثيرة منها عجز بعضهم عن متابعة الدراسة ، أو إلغاء البعثة توفيرًا للنفقات ، أو لأسباب شخصية ، فكان هذا الشاب العالم الفذ يتلقفهم ولا يفرط فى واحد منهم ويتولى بنفسه تأهيلهم وإتمام علومهم ، حتى يصبحوا فى درجة علمية مساوية لزملائهم ، وقد جعل من مدرسة المهندسخانة محرابًا للعلوم ، يلجأ إليه ، بناة النهضة الحديثة ، ويجدون فيه المأوى . فيفتح لهم أستاذهم صفحات الكتب المغلقة ، ويأخذ بأيديهم حتى يجلسهم على مقاعد التدريس ، أو يخرجهم إلى الحياة العامة مهندسين أكفاء قادرين .

وأنت ترى أن أهم أسباب التخلف التى وصلنا إليها هو ما أحكيه لك عن حياة هذا الأستاذ وأمثاله من رواد النهضة الحديثة الذين أصابتهم ضربات الحكم المستبد الجاهل أو ضربات الشمس الحارقة الماحقة .

كتب السيد صالح مجدى بك عن رحلة العذاب التى عاشها أستاذه رفاعة بك وزملاؤه فى الخرطوم :

– وكان (رفاعة بك) – رحمه الله – مدة إقامته يتمنى سرعة عودته إلى مصر . لكنه لم يظفر بمرامه إلا بعد انقضاء ولاية المرحوم عباس باشا المتوفى فى ثمانى عشر شوال أحد شهور سنة سبعين ومائتين وألف . فلما عاد إلى وطنه بالعافية والصحة والاحترام ، فى أوائل حكم خلفه المرحوم محمد سعيد باشا ، المتوفى فى ثمان وعشرين من رجب أحد شهور سنة تسع وسبعين بعد المائتين والألف ، حمد الله – سبحانه وتعالى – على الخلاص من ضيق الأقفاص وكان معه هناك عدة من أبناء المعارف من ضمنهم المرحوم محمد أفندى بيومى المهندس الماهر المشهور ، فمات وبالخرطوم قبر فى سنة ثمان وستين ومائتين بعد الألف ، ولم يرجع معه إلى القاهرة المحروسة إلا من كان فى أجله فسحة » .

لم يذكر صالح مجدى أسماء من كانوا مع رفاعة بك فى الخرطوم ، ولكن عبارته تدل على أن آخرين من الأساتذة قد ماتوا هناك ، غير الأستاذ بيومى أفندى المهندس الماهر المعهود وهذه هى إحدى جنايات الطغيان والاستبداد التى عاشت مصر فى ظلامها منذ بدايات النهضة الحديثة التى سبقت نهضة اليابان ، ثم انتكست فوصلنا إلى ما نحن فيه الآن ، حيث نبدأ عصر النهضة من جديد .

مضت مائة وثلاثون سنة منذ وفاة الأستاذ محمد بيومى أفندى فى الخرطوم .

وخلال هذه السنوات ظلّت مصر مستمسكة بوسائل النهضة الحديثة فى إصرار ، وظلت تكافح فى ميادين مختلفة عسكرية وسياسية واقتصادية ، تنتصر أحيانًا وتنكسر أحيانا ، ولكنها رغم ذلك قادت النهضة العلمية إلى جانب قيادتها لحركات النضال الوطنى .

لقد كانت الرحلة القصيرة للأستاذ محمد بيومى أفندى من أعظم وأنصع معالم هذه النهضة ، وكان دوره فى العلوم الرياضية والهندسة مواكبًا لدور زميله (رفاعة بك) فى العلوم الإنسانية .

كان هذا الأستاذ الجليل أول مترجم ومؤلف فى الهندسة والرياضيات باللغة العربية التى كان يدرس بها هذه العلوم فى مدرسة المهندسخانة ، وقد طبعت كتبه فى مطبعة بولاق وكانت من بشائر النهضة .

وأشهر هذه الكتب المترجمة عن الفرنسية :

- جر الأثقال .
- الجبر والمقابلة .
- ثمر الاكتساب فى علم الحساب.
- الهندسة الوصفية .
- جامع الثمرات فى حساب المثلثات .

وقد شجع هذا العمل الرائد لهذا الأستاذ النابه غيره من زملائه على تأليف الكتب الهندسية والرياضية باللغة العربية ، فألف أحمد دقلة بك كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) ، كما ألف غيره كتبا عديدة فى هذه العلوم الحديثة وهى كتب مطبوعة ، وكانت تدرس فى مدرسة المهندسخانة ، بل إن (على باشا مبارك) الذى تولى نظارة المدرسة فى الجيل اللاحق بجيل الأستاذ بيومى أفندى أنشأ مطبعةً خاصةً لطباعة الكتب الهندسية وكتب الرياضيات فى مدرسة المهندسخانة .

وهؤلاء الأكابر من صناع النهضة المصرية ، كانوا يدركون أن إعادة بناء الحضارة فى مصر ترتبط بلغة مصر ، فنقلوا العلوم الحديثة إلى العربية ، ودرسوها فى الطب والهندسة والجغرافية والفلك وسائر العلوم بهذه اللغة القادرة .

لم يسأل واحد منهم هذا السؤال الخائب :

– هل تستطيع اللغة العربية احتواء علوم العصر وتنكولوجيا العصر؟

ولم ينتظر واحد من هؤلاء العظماء إجابة عن هذا السؤال .

ولكنهم ترجموا ، وألفوا ، ودرسوا ، وطبعوا كتبهم . بلغتهم القومية . ولم تكن عندهم عقدة الخوف من اللغات الأجنبية التى أتقنوها إتقانًا عظيمًا ، ولم يقولوا إن التأليف والتدريس باللغة العربية يمنع العلماء من إتقان اللغات الأخرى . أو يحول بين الطلاب وبين دراسة اللغات الأخرى .

كانت القضية الأساسية عند الأستاذ محمد بيومى أفندى وأمثاله من الرواد الأوائل هى صنع النهضة الحديثة ، وقهر الظلام وإطلاق أشعة النور ، فلم يفكروا فى قدرة لغتهم على استيعاب حضارة العصر ، ولكنهم فكروا فى قدرة عقولهم على صنع حضارة مصر بلغة مصر ، حتى يصل شعاع النور إلى كل العقول .

إن الألمان يدرسون كل العلوم بلغتهم الألمانية وهى ليست لغة عالمية مثل الفرنسية والإنجليزية ، فهل أنقص هذا من قدر العلوم عند الألمان بسبب اللغة ، أو منع العلماء والطلاب عندهم من معرفة اللغات الأخرى؟

أليس يكفى أن يكون من الألمان (أينشتاين) أكبر علماء القرن العشرين ؟ أقول لك إنه لو كان (رفاعة بك) قد نجح فى نقل معالم الحضارة فى العلوم الإنسانية إلى اللغة العربية عند مطالع هذا العصر ، فإن الأستاذ محمد بيومى أفندى كان أكثر نجاحًا لأنه نقل علوم الهندسة والرياضيات إلى لغتنا العربية .

ولكننا وقد مضى أكثر من قرن من الزمان بعد وفاة الأستاذ محمد بيومى أفندى ، سمعنا شاعر النيل حافظ إبراهيم يقول عن اللغة العربية وهى تنعى حظها بين أهلها فى سنة ١٩٠٣ :

وَسِعْتُ كتاب الله لفظًا وغايةً .
وما ضِقْت عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ
وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدرُّ كامن
فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتى
.....

أيهجرنى قومى ، عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات .

لو بعث الأستاذ بيومى من قبره المجهول المكان فى الخرطوم ، لقال لشاعر النيل حافظ إبراهيم الذى نزع الإنجليز رتبته العسكرية فى الخرطوم وأعادوه إلى مصر :

– لا ياشاعر النيل . . ها هى كتبى بلغتى فيها كل ما طلبته من وصف الآلات وذكر المخترعات .

حقًّا . . كان هذا الأستاذ المهندس الماهر من عظماء مصر فى هذا العصر .